

التفسير المطول -سورة الزخرف 043- الدرس (03-09): تفسير الآيات 15-25 العلم غذاء العقل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-06-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الزخرف.

العلم غذاء العقل والذكر غذاء القلب:

مع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15)

سورة الزخرف

وقبل أن أبدأ شرح هذه الآية أريد أن أضع بين أيديكم حقيقة تعيننا على فهم كتاب الله، هذه الحقيقة هي أن الإنسان -كما تعلمون- جسد وقلب وعقل، فإذا اعتنى بعقله وغذاه بالعلم فقد حقق شرطاً من الدين، وإذا اعتنى بقلبه فأكثر من الذكر فقد حقق الشرط الآخر، أما أن يكتفي الإنسان بسماع الدروس، حتى ولو أبدى إعجابه بالدروس، فما لم يكن من ذكر الله عز وجل لا يشعر بالسعادة التي وعد الله بها المؤمنين، فأحياناً الأخ يشكو ويقول: حينما سلكت طريق الإيمان كنت في سعادة كبيرة ما لبثت أن تضاءلت، إلى أن أصبحت أنكر على قلبي الأحوال التي أعيشها؟

فالجواب عن هذا السؤال هو أن الدين يحتاج إلى علم كغذاء للعقل، وإلى ذكر كغذاء للقلب، وأبرز ما في الذكر الصلاة.

الذكر لا ينعقد إلا بالالتزام التام بالأمر والنهي:

قال تعالى:

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)

الإنسان حينما يصلي ينبغي أن يعتني بصلاته، وأن يستحضر عظمة الله عز وجل، وأن يعيش الآيات التي يقرؤها، وإذا ركع يشعر أنه خاضع لله عز وجل، وإذا سجد يشعر أنه يستمد العون من الله، فالصلوات ذكر، وتلاوة القرآن ذكر، والأدعية ذكر، والاستغفار ذكر، لكن هذا الذكر لا ينعقد إلا بالالتزام التام بالأمر والنهي، فالإنسان يجب ألا يتساهل حتى في الصغائر، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ، وَلَكِنْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تُحَاقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوا، إِنْ قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ

صحيح الترغيب

من ذكر الله تعالى شعر بأثر ذلك في قلبه ونفسه:

فالإنسان الذي يشكو أنه ينكر على قلبه ما يعانیه، أقول لكم لو الإنسان ضبط جوارحه ضبطاً تاماً كما أمر الله، وضبط دخله وضبط إنفاقه، وضبط بيته، حينما يحقق هذه الاستقامة يشعر أن الطريق صار إلى الله سالكاً، فإذا ذكر الله عز وجل إن في الصلوات الخمس، أو في تلاوة القرآن، أو في الأدعية والاستغفار يشعر بأثر ذلك في قلبه ونفسه، فإذا حضر مجلس العلم ليستمع إلى تفسير القرآن مثلاً فنفسه مهياً لهذا السماع، أما أن يتلقى معلومات ودقائق وأفكار وتفسيرات وتعليقات من دون أن يرافق هذا العلم ذكر، ومن دون أن يرافق هذا الذكر استقامة تامة وانضباطاً وبذلاً، وكل أخ يشكو فتور صلواته، فالجواب هو في قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

سورة الكهف

الدين قضية مصيرية والإقبال على الله هو مصدر السعادة:

أليست الصلاة لقاء مع الله! أليس اللقاء مع الله مسعداً! ألا يشعر المصلي حينما يصلي أن الله تجلى على قلبه! فهذه قضية متكاملة، قضية الاستقامة مع العمل الصالح، قضية طلب العلم كغذاء للعقل، وقضية الذكر وفي قمة الذكر الصلوات الخمس، والأدعية والاستغفار وتلاوة القرآن.

فلما يلتزم المسلم بكل جوانب الدين يقطف الثمرات، كنت أضرب هذا المثل دائماً: أن الإنسان يمكن أن يشتري قطعاً من سيارة (عجلات، هيكل، مقاعد، محركاً)، لكن هذه القطع المتناثرة، ولو كان لها ثمن باهظ، لكنها في مجموعها لا تشكل سيارة، إنها لا تمشي، كذلك الدين إذا لم يحط به الإنسان من كل جوانبه؛ يعني اعتنى بقلبه ذاكراً، واعتنى بعقله متعلماً، واعتنى بسلوكه مستقيماً ومحسناً فلا يقطف ثمار الدين، والدين قضية مصيرية.

الدين كلُّ متكامل:

الإنسان حينما يصطلح مع الله فهو يتعامل مع خالق الكون، فهل من المعقول إن سرت على الله أن تشعر بالملل؟ مستحيل، فالله عز وجل هو مصدر السعادة، مصدر السرور، مصدر الطمأنينة، مصدر الثقة، مصدر السكينة، كل المشاعر العالية جداً التي يحس بها المؤمن إنما هي ثمرة من ثمار الاتصال بالله عز وجل، والدين كلُّ متكامل، ونحن أحياناً نأخذ جانباً منه.

الدين فيه كليات ثلاث:

1. كلية السلوك:

لقد قلت سابقاً: الدين فيه كليات ثلاث، هذه الكليات الثلاث متكاملة، كلية العلم، كلية القلب، كلية السلوك، السلوك فيه شيئان: انضباط وعمل صالح، الانضباط: هو الالتزام والاستقامة والطاعة، هذه كلها مرادفات، يعني ما من واحد إلا ويعلم الحلال والحرام، إطلاق البصر حرام، وغض البصر طاعة لله عز وجل، الكذب حرام، والصدق طاعة لله عز وجل، الإخلاص والخيانة، الإحسان والإساءة، فالإنسان حينما يستقيم يجعل الطريق إلى الله سالماً، بقي أن يتحرك على هذا الطريق، الحركة هي العمل الصالح، العمل الصالح يدفعك في طريق الإيمان، والاستقامة تذلل العقبات التي في طريق الإيمان.

تصور أنك أمام طريق كله عقبات، وتقود مركبة صغيرة وكل عقبة تتشكل من خمسة أمتار مكعبة من الإسمنت المسلح، وهي كثيرة في الطريق، فالطريق إذاً مسدود، كل عقبة عبارة عن معصية، فالإنسان حينما يزيل هذه العقبات يعني حينما يستقيم، يعني حينما يضبط بيته وعمله وجوارحه ولسانه وعينه وسمعه، معنى ذلك أن هذه العقبات أُزيلت من طريق الإيمان.

فحينما يبذل من ماله، من وقته، من عضلاته، من خبرته، من جهده يتحرك على هذا الطريق، هذا الطريق فيه عقبات ويحتاج إلى حركة، الحركة هي العمل الصالح، والعقبات هي المعاصي، فإذا استقام العبد أزال العقبات من طريق الإيمان، فإذا عمل صالحاً تحرك على هذا الطريق، هذا الجانب السلوكي.

2. كلية القلب:

الجانب القلبي: الصلوات الخمس، الذكر، التلاوة، الاستغفار، والدعاء.

3. كلية العلم:

الجانب العلمي: طلب العلم، معرفة كتاب الله عز وجل والتفسير، ومعرفة سنة النبي عليه الصلاة والسلام لقول الله عز وجل:

مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ
كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

سورة الحشر

معرفة الله تؤدي إلى صدق الطاعة والعبادة:

ومعرفة سيرة الرسول ليكون النبي أسوة لنا، إذاً أركان المعرفة؛ معرفة كلام الله، هذا الكتاب المقرر، تصور أن إنساناً سيتقدم لامتحان بعد يومين ومكتبته عامرة عبارة عن أربعة جدران ممتلئة بالكتب، وهذا الامتحان مصيري وسيحدد مستقبله بعد يومين، ولديه كتاب واحد مقرر، أليس العقل كل العقل أن يقرأ الكتاب المقرر؟ هذا هو الكتاب المقرر.

ذكرت في درس سابق: كل علم ممتع، لكن هناك علماً ممتعاً نافعاً، أما علم الدين فهو علم ممتع نافع مسعد، قد تقرأ في النعوة أن فلاناً يحمل أعلى شهادة، دكتوراه، لكن حينما توفاه الله عز وجل مفعول هذه الشهادة انتهى، قد يكون أعلم إنسان في النحو، قد يكون أعلم إنسان في الطب، قد يكون أعلم إنسان في الهندسة، حينما ينتهي أجله تنتهي شهادته وينتهي اختصاصه، وينتهي تفوقه، وينتهي كل شيء بوفاته، إلا من كان عالماً بالدين، فالذي يتعرف إلى الله في حياته فهذه المعرفة تنفعه بعد الموت وإلى أبد الأبد.

لذلك ليس هناك تناسب إطلاقاً بين أن تتعلم علم الخليقة وبين أن تتعرف إلى الله عز وجل، كل العلوم المادية العصرية من طب وفيزياء وكيمياء ورياضيات وطبيعيات وفلك وعلم نفس وعلم اجتماع هذه علوم الخليقة، وهناك علوم الشريعة، وهناك علوم الحقيقة.

معرفة الله عز وجل تحتاج إلى مجاهدة:

معرفة الله عز وجل لا تحتاج إلى مدارس ولا إلى إصغاء ولا إلى مطالعة ولا إلى كتابة ولا إلى تذكر، تحتاج إلى مجاهدة، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: جاهد تشاهد.

المجاهدة الاستقامة، يعني إنسان يضبط جوارحه فهو كأنه يعرض نفسه للرحمة، إذا وقف ليصلي يشعر أنه يصلي، أما حينما يتقلت الإنسان يقع الحجاب، ومع الحجاب يأتي الملل والسأم، والله الدرس طويل، وكل شيء قاله نعرفه سابقاً، الإنسان حينما يضعف اتصاله بالله عز وجل لا يستفيد الفائدة القصوى من العلم.

إذاً الذي أتمناه على الإخوة الكرام أن يأخذ كل منّا الدين من كل جوانبه؛ الجانب الاعتقادي العلمي، حضور مجلس العلم طلباً للعلم، طبعاً المعلومات تتراكم، كل أسبوع درس تفسير، كل أسبوع درس حديث، كل أسبوع درس سيرة، وتتكون لديه الفناعات وتتراكم.

وأقول لكم هذه الكلمة أيها الإخوة: لا يعرف أحدكم فضل طلب العلم إلا إذا جلس مع صديق له في سنه لم يطلب العلم، فيرى البون شاسعاً بينه وبين هذا الصديق، فهو تعرف إلى الله، عرف التوحيد، وعرف بأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وعرف بأن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السماوات والأرض، عرف أن الله يراقبه، وعرف أن الله سيحاسبه، هذه المعرفة لا تقدر بثمن، لكن أهل الدنيا يعتقدون على بعضهم بعضاً، ويدفعون الثمن باهظاً لجهلهم بالله عز وجل، كلام سخي، وتفكير ضحل، وشرك واضح، واهتمامات بالدنيا، وهذا شيء يعرفه كل من طلب العلم، فطلب العلم فريضة على كل مسلم، الإنسان بالعلم يرقى.

لا أحد ينال ثمار هذا الدين إلا إن أخذه من كل جوانبه:

والخلاصة؛ أيها الإخوة الكرام، أنه لا ينال أحد منّا ثمار هذا الدين العظيم إلا إذا أخذه من كل جوانبه؛ الجانب السلوكي استقامة وعمل صالح، الجانب العلمي معرفة كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة نبيه وصحابته، ومنهاجنا درس تفسير، ودرس فقه وحديث، ودرس سيرة، هذه أركان ثقافتنا الإسلامية؛ القرآن كلام الله، والنبي يفصل كلام الله في أقواله، ويعبر عن فهمه لكلام الله بأفعاله، فنحن نريد الكتاب والسنة والسيرة، طبعاً الفقه نأخذه من السنة.

بقي على الإنسان أن يذكر الله، والذكر متعلق بالاستقامة، إذا لم يكن هناك استقامة فالإنسان يميل من الذكر، يقوم إلى الصلاة وهو كسول، لا يذكر الله إلا قليلاً، قال الحسن البصري: إذا قرأت القرآن ولم تشعر بشيء، وإذا صليت الصلوات الخمس ولم تشعر بشيء، وإذا ذكرت الله ولم تشعر بشيء فاعلم أن في الإيمان مشكلة كبيرة.

معنى ذلك أن الطريق مسدود، يعني أنه في حجاب، فابحث عن سبب هذا الحجاب، الإنسان لا يجامل نفسه، أكثر الناس يسخطون على قلة أرزاقهم، لكن يرضون عن عقولهم، وأنا أضيف إلى ذلك أنهم يرضون عن إيمانهم، لأن الإنسان أحياناً يتوهم أنه يوازن نفسه مع قطاع الطرق فيرى نفسه ولياً، يوازن نفسه مع المنحرفين، مع المقصرين، مع العصاة، مع تاركي الصلاة، فيجد نفسه من الأولياء، هذا خطأ كبير، يجب أن تقارن نفسك مع الصالحين، مع المؤمنين الصادقين، مع العلماء العاملين، مع العلماء المخلصين، مع التابعين، مع النخبة التي اختارها الله عز وجل لتكون من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فالإنسان دائماً إذا أراد أن يسعد عليه أن يوازن دنياه مع من هو دونه، وعليه أن يوازن إيمانه مع من هو فوقه حتى يسعد، فهذا الكلام إجابة عن سؤال أحد الإخوة الكرام عن أن الإنسان بعد حين تقتر أحواله. وهناك جواب آخر، جواب طبيعي جداً.

الشيء إذا وجد يُؤف:

هو أن الإنسان حينما ينتقل فجأة من بيت صغير في حي مُبْتَزَل إلى بيت واسع في حيٍّ بمقياس الناس راقٍ يشعر بنشوة ليومين أو ثلاثة أو عشرة، لكن بعد شهر أو شهرين يكون قد أَلَفَ البيت الجديد، وأَلَفَ مساحته الواسعة، وأَلَفَ مرافقه الجيدة، هذه النقلة النوعية معها فَوْرَة هذه الفورة بعد الانتقال المفاجئ من شيء إلى شيء، أمرٌ طبيعي جداً، وبعد حين يألف الإنسان أحوال أهل الإيمان، هذا ما قاله الصديق عليه رضوان الله قال: **بكينا حتى جفت مآقينا.**

المنقلة المفاجئة من الكفر إلى الإيمان، من التقلت إلى الاستقامة، من الضياع إلى الهدى، هذه المنقلة المفاجئة مُسَعِدَة جداً، لكن من الطبيعي جداً أن هذه المنقلة ستتضاءل النشوة التي رافقتها، لأنها أصبحت مألوفة، فمثلاً قد يشتري شخص مركبة، وفرحته لا ينام تلك الليلة، ويتجول في الشوارع إلى ساعة متأخرة من الليل فرحاً بها، لكن بعد سنتين لا يركبها إلا عند الضرورة، معنى هذا أن الشيء إذا وُجِدَ يُؤَلَف.

من أثر مرضاة الله على شهوات نفسه ارتقى عند الله عز وجل:

إذا أحد شكاً أن أحواله قد ضعفت فليس معنى هذا أنها ضعفت، لكنه أَلَفَهَا، والدليل لو أن واحداً يشكو من ضعف أحواله ألمٌ بمعصية أو مخالفة فإنه يشعر وكأنه قد سقط من السماء إلى الأرض، إذاً حينما كان يشكو ضعف أحواله كان على اتصال بالله عز وجل، والدليل طمأنينته، والدليل سعادته، لكن هذه السعادة أَلَفَهَا فظننها تراجعاً، أقول: إنها ليست تراجعاً. هذا جواب آخر، فالإنسان إذا كان يحرص على الذكر وطلب العلم وعلى الاستقامة التامة وعلى العمل الصالح، وقال لك: لقد أَلَفْتُ أحوالي، أو كأنها تضاءلت، فالجواب: لا، إنك أَلَفْتَهَا ولم تتضاءل، والدليل حينما تُحَجَّب تشعر أنك انتقلت من حال مُسَعِدٍ إلى حال لا يُحْتَمَل، إلا أن هناك حالات يقولها عامة الناس: أنا لا أشعر بشيء، فأنت ما ذقت طعم الإيمان حتى تشعر بفقده، إذا كان الإنسان منغمس بالمعاصي والآثام، وأحياناً يجامل أهل الإيمان، وقال لك: أنا لا أشعر بشيء، ذلك لأنه لم يذوق الشيء حتى يشعر بفقده، لكن المؤمن حينما يذوق طعم القرب يسعد.

واليك قصة أذكرها كثيراً؛ شخص سمع من شيخه أن لكل معصية عقاباً، وزَلَّت قدمه بمعصية طفيفة فصار ينتظر العقاب من الله عز وجل، مضى يوم ويومان وثلاثة فلم يشعر بعقاب أصابه، ففي الصلاة ناجى ربه وقال: ربي عصيتك ولم تعاقبني؟ فوقع في قلبه أن الله تعالى قال له: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرملك لذة مناجاتي؟ فالإنسان عندما يكون على اتصال بالله يشعر بسعادة، والإنسان حينما يستقيم استقامة تامة، كأن يمشي في الطريق ويغض بصره بشكل حازم، ثم يدخل المسجد ليصلي، يشعر أنه فعل شيئاً لله، فهو بإمكانه أن يطلق بصره ولا أحد يحاسبه بكل الأرض، ولكنه غَضَّه خوفاً من الله عز وجل، ويقول في نفسه:

لَنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۗ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)

سورة المائدة

فلما توجه إلى بيت الله ليصلي شعر أنه على شيء من الطاعة لله، فهو أثر رضوان الله على شهوات النفس.

طلب العلم ومذاكرته والتدقيق في أفعاله تمكّن المرء من ترسيخ معلوماته:

فيا أيها الإخوة الكرام، ثلاثة أشياء أتمناها منكم؛ وأن تكون متزامنة معاً جنباً إلى جنب: جانب طلب العلم، وحضور هذه المجالس يحقق هذا الجانب.

يضاف إلى هذا الجانب المذاكرة، فالإنسان إذا سمع درساً ولم يحاول أن يراجعه في البيت، تتفقت منه المعلومات، ثم تتلاشى، فيحسن به أن يعيده مع زوجته، ومع أولاده، ومع أقربائه، ومع جيرانه، مع إخوانه، ومع زملائه في العمل، فإذا جلس الإنسان مع من يلوذ به ساعة بالأسبوع، وحاول أن يستذكر ما قيل في هذا الدرس بذلك يثبت العلم، فالعلم يُلقى في الهواء والتأثير آني، لكن المراجعة والمذاكرة تمكّن المرء من ترسيخ معلوماته، والله عز وجل قال:

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ وَمَا يُبَاحِبِكُمْ مِنْ جُنَّةٍ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)

سورة سبأ

معنى هذا أن هناك دعوة أن يجلس الإنسان في بيته مع إخوانه ويتذاكر في هذا الكلام المعجز، يتذاكر فيما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، لأن المذاكرة تثبت العلم، فإذا حضر الإنسان هذه المجالس، أو أي مجالس أخرى، وذاكر مع إخوانه ما ورد فيها معنى ذلك طلب العلم، الآن إذا دقق جداً في جوارحه، وفي دخله وفي إنفاقه، وفي بيته وفي عمله وجعل هذه الحقول كلها موافقة لشرع الله يكون قد حقق الجانب السلوكي، وهذه الاستقامة، يبقى العمل الصالح، والعمل يحتاج أن يبذل، فإله عز وجل قال:

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

سورة البقرة

الذكر يحقق طمأنينة القلب والنفس:

لكل إنسان ما يميزه عن غيره، فمثلاً في مجال المعرفة؛ هذا يتقن اللغة، وهذا يتقن الرياضيات، وذلك يتقن الهندسة، وآخر يتقن حرفة معينة، كل إنسان يتقن شيئاً، فإذا بذل من حرفته، من خبرته، من معلوماته، من طاقاته، من عضلاته، من ماله، من جاهه، بذل شيئاً للمؤمنين ابتغاء وجه الله عز وجل

يكون قد حقق الجانب السلوكي، فهو إذاً استقام وعمل أعمالاً صالحة، وحضر مجالس علم وذاكرها، وبقي عليه الجانب القلبي فهو يحتاج:

- أن يصلي الصلوات الخمس بإتقان.
- إلى أن يذكر الله عز وجل؛ إما ذكراً منفرداً أو ذكراً جماعياً.
- يحتاج إلى أن يدعو ربه، وإلى أن يستغفر الله.

فإذا حققت جانب الذكر "القلب" وجانب العقل "العلم"، وجانب السلوك، فأخذت من كل هذه الجوانب، الآن بإمكانك أن تقطف ثمار الدين، وأصبحت المركبة متكاملة، كلها مترابطة، أما إذا كان هناك فقط هيكل ومقاعد وعجلات ومحرك، وكله مفترق عن بعضه، هذه ليست مركبة، ولا تحقق شيئاً معك.

صفات البشر لا تليق بخالق البشر:

نحن الآن مع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي قالوا: إن الملائكة بنات الله، لأن الابن في الأصل جزء من الأب والأم،

فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي.

صحيح البخاري

إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، وَيُنْصِبُنِي مَا أَنْصَبَهَا.

صحيح الجامع

الابن دائماً جزء من الأب، لكن حينما قالوا إن الملائكة بنات الله ماذا فعلوا؟ جعلوا الذات الإلهية مركبة من أجزاء، هذا خلاف علم التوحيد.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ يعني وصفوا الإله العظيم بأن له بنات، والأهل مطلقاً يتخذهم الإنسان من أجل الاستعانة بهم حينما تتقدم به السن، أو ليأنس بهم، أو ليكمل ضعفه بهم، أو ليكمل شقه الآخر بهم، فالإنسان يتخذ الأهل عن حاجة، عن ضعف والإنسان ضعيف، فمع زوجته وأولاده يتكاملون، الرجل بحاجة إلى الأنثى، والأنثى كذلك، وإذا اجتمعوا صاروا بحاجة إلى أولاد، والأولاد كذلك، والآباء بحاجة إلى أبنائهم، والأبناء بحاجة إلى آبائهم، فالإنسان لأنه ضعيف يتخذ الأهل والأولاد، لأنه يستوحش وحده، فيأنس بهم، لأنه يضعف وحده يقوى بهم، فهذه صفات البشر لا تليق بخالق البشر.

فالخلاصة أنهم جعلوا الذات الإلهية مركبة، كل شيء فيه أجزاء فهذا يعني أنه مركب، هذه الآلة فيها أجزاء فممكن أن تفصل أجزاءها بعضها عن بعض، إذاً مركبة، والله عز وجل مُنَزَّهٌ عَنِ التَّبَعُّصِ والتركيب، والجزئية، والمكان، والزمان، والصورة كل هذه الصفات لا تليق بالله عز وجل.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ كفه ظاهر بين، يكفر ويتجح بكفه، يكفر ويفتخر بكفه، يعني إذا أحسنت إليه لا يقابل الإحسان بالإحسان، بل يقابل الإحسان بالإساءة.

الذين يعصون الله قابلوا نعمه بالكفر والعصيان:

هؤلاء الذين يكفرون، يعصون الله، يعتدون على عباد الله، ألا يعرفون أن الله امتن عليهم بنعمة الوجود، ونعمة الصحة، ونعمة الإمداد؟ هذه النعم الظاهرة التي غرق الإنسان بها، قابلوا هذه النعم بالكفر، والعصيان، والطعن، والسباب أحياناً، إذا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي جعلوا لله أولاداً، إما أنهم جعلوا له ابناً، أو إنهم جعلوا الملائكة بنات الله عز وجل.

كلمة الإنسان معرفة ب (أل) في القرآن:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ كلمة الإنسان إذا جاءت معرفة ب (ال) في القرآن تعني الإنسان قبل أن يؤمن، أي الكافر:

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22)

سورة المعارج

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

سورة العصر

فحيثما وردت كلمة الإنسان معرفة ب (ال) في القرآن فهذه (ال) الجنس، يعني جنس الإنسان قبل أن يطهر بالإيمان، وقبل أن تصطبغ نفسه بصبغة الله عز وجل.

الفاجر لا يكتفي بالكفر بل يبالغ في إظهار الكفر:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ يعني كفه ظاهر، أو أنه يُظهر كفه، هذا اسمه الفاجر، الفاجر لا يكتفي بالكفر بل يبالغ في إظهار الكفر، وبعض الأمراض الوبيلة التي تطحن البشرية اليوم (مرض الإيدز)، والنبي الكريم حدّث عنه قال:

لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم.

أخرجه ابن ماجه

الإنسان العادي إذا فعل الفاحشة يستحي بها، لكن هؤلاء يعلنون بها، فصار لهم نقابات في بعض البلاد الغربية، هؤلاء المنحرفون، ويطالبون بحقوقهم، والآن في بعض البلاد سُمح لهم بدخول الجيش، (حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم).

ولقد طالعنا الصحف مؤخراً بأخبار عن مرض جديد اسمه (أكلة اللحم)، والإنسان ينتهي مع هذا المرض بأربع وعشرين ساعة وسببه جنسي أيضاً، وكأن الله سبحانه رفع العيار قليلاً، فإذا لم يتأثروا بالمرض الأول، وهو (الإيدز)، فهناك مرض آخر.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (15) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمُ بِالْبَنِينَ (16)

سورة الزخرف

والخليقة مؤلفة من ذكور، وإناث، وكان العرب في الجاهلية يكرهون البنات.

الحديث في كتاب الله عن وأد البنات:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59)

سورة النحل

وتعلمون أيضاً أن العرب كانوا يبدون البنات، وقد قال الله عز وجل:

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

سورة التكوير

المولود هدية من الله عز وجل ذكراً كان أم أنثى:

هم يكرهون البنات، ويحبون الذكور، لكن المؤمن بالعكس، فهو يرى أن هذا المولود هدية من الله عز وجل، لذلك -ورب الكعبة-، ما من مؤمن صادق إلا ويحتفل بالبنات كما يحتفل بالذكر؛ لأنها هدية الله عز وجل، وربنا عز وجل قال:

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ ائْتِنِي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ وَدَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36)

سورة آل عمران

لقد تمننت امرأة عمران أن يأتيها غلام يدعو إلى الله، فلما جاءت أنثى قالت ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ لأن الأنثى قعيدة البيت، والله عز وجل قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ السيدة مريم جعلها أمّاً لنبىٍّ عظيم، وكثير من النساء يلدن الذكور الذين يصلحون العالم وتكون هي السبب في إنجابها.

ارتكاب الكفار خطأ جسيماً بادعائهم أن الله بنات:

أما هنا الآية: ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ فقد ادّعا أن الله بنات، لكنكم كيف تصطفون لأنفسكم الذكور وتتسبون البنات إلى الله؟ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاتخذه ذكراً وليس أنثى.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ يعني أنت تختار لنفسك الذكور وتتعت لله عز وجل الإناث! هذا بالإضافة إلى أنه تصور أن الله بنات، ففي الآية الأولى جعل لله جزءاً حينما نسب له الذرية، وهناك خطأ آخر أن هذا الجزء أنثى، وليس ذكراً، هو يحب الذكور ووصف الإله العظيم بأن له بنات.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)

سورة الزخرف

طبعاً حينما تقول: إن الله اتخذ الملائكة بنات رفعنا الملائكة إلى جنس الألوهية، هذا معنى ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهناك رجل في الجاهلية زوجته ولدت بنتاً فغاب عن البيت من شدة ألمه، فقالت امرأته:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا نُنبت ما قد زرعه فينا

* * *

نوع الجنين هو شأن الرجل:

وبعد تقدم العلم أثبت أن نوع الجنين ذكراً كان أو أنثى ليس من شأن المرأة بل هو من شأن الرجل، لقوله تعالى:

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)

سورة النجم

فالمرأة ليس لها علاقة إطلاقاً بموضوع الذكر، أو الأنثى، فهذا جهل، وأن يغضب الإنسان من امرأته إن أنجبت له بنتاً، فهذا منتهى الجهل، ويذكر أن رجلاً قال: إن أنجبت بنتاً فهي طالق، فجاءته ببنتين معاً فلم تطلق.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني اسوداد الوجه دليل الألم الشديد، والإنسان إن يفرح يتألق ويتورد وجهه وتتحرك عيونه حركة زئبقية، أما إذا تألم يسود وجهه وتجمد عيناه، هذه علامات الحزن، هنا اسودَّ وجهه وهو كظيم أي ممتلئ الماء، ويكاد أن ينفجر.

الله عز وجل وصف الفتاة أن من طبيعتها أنها تحب الزينة:

أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

سورة الزخرف

من هذا الذي يُنشَأُ في الحلية؟ قالوا: هي الفتاة تُنشَأُ في الحلية، والحلية الزينة، فالله عز وجل وصف الفتاة أن من طبيعتها أنها تحب الزينة، وهذا جزء من طبيعتها.

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ هذا المخلوق الأنثى الله عز وجل صممه تصميماً يتناسب مع دوره في الحياة، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع دقيق، فالرأي السديد والعقيدة الصحيحة أن المرأة كالرجل تماماً في ثلاثة أشياء.

المرأة مساوية للرجل في التكليف والتشريف والمسؤولية:

في التكليف مكلفة بالإيمان وبأركان الإيمان، ومكلفة بالإسلام وبأركان الإسلام، وفي التشريف، يعني أن امرأة مؤمنة -والله الذي لا إله إلا هو- هي خير عند الله من مليون مشرك، من مليون رجل كافر، فالأنثى مكلفة ومشرفة.

إذاً المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، والنقطة الثالثة في المسؤولية.

كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته، المرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيته.

متفق عليه عن عبد الله بن عمر

وقال عليه الصلاة والسلام:

أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَعَدْتَ عَلَى بَيْتِ أَوْلَادِهَا فَهِيَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ.

ضعيف الجامع

انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حُسنَ تَبَعْلِ إِحْدَاكُنَّ لزوجها وطلبها مَرْضَاتِهِ وَإِتْبَاعَهَا موافقته يعدل ذلك كله.

الألباني بسند ضعيف

يعني مكلفة ومشرفة ومحاسبة كالرجل تماماً، هذا معنى قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189)

سورة الأعراف

والخلاصة؛ أن المرأة تشعر كما يشعر الرجل، وتحب كما يحب، وتكره كما يكره، وتُبغض كما يبغض، وتتمنى كما يتمنى، وتؤمن كما يؤمن، وتكفر كما تكفر، وتسعد كما يسعد، وترقى كما يرقى، لا

فرق بينها وبين الرجل مطلقاً، وقد تكون مؤمنة إلى درجة كبيرة، صديقة، السيدة مريم كانت صديقة، والسيدة خديجة، والسيدة عائشة، والسيدة آسية امرأة فرعون.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بِنْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)

سورة التحريم

والله الذي لا إله إلا هو أيما امرأة عرفت ربها، وقامت على تربية أولادها، وأطاعت زوجها، وكانت امرأة مثالية، فهي ولية عند الله عز وجل لقوله تعالى:

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63)

سورة يونس

النظرة الجاهلية للمرأة قبل الإسلام وبعده:

إخواننا الكرام، أية نظرة للمرأة تجعلها أقل من الرجل هي نظرة جاهلية، والجاهلية جاهليتان: جاهلية قبل الإسلام حيث كانوا يبدون البنات، وجاهلية أخرى بعد الإسلام، فحينما تُستغل الفتاة لأرخص الأهداف، فتكون الفتاة وسيلة للإعلان، أليس هذا امتهاناً للمرأة؟ والله امتهان وأعظم امتهان، المرأة في الأصل أم أو أخت أو بنت أو زوجة إنسان عظيم يصبح سلعة تجارية! أعوذ بالله، إنها جاهلية القرن العشرين، في جاهلية ما قبل الإسلام وأدوا البنات، وفي الجاهلية الثانية فتنوا البنات:

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۖ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۚ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191)

سورة البقرة

فالإنسان الجاهلي كان يحفر حفرة ويضع ابنته فيها ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ والإنسان الحديث يقول لك: أنا ديمقراطي، أنا أطلق لابنتي العنان، أحب أن تختبر الحياة بنفسها، أحب أن تمارس التجربة الإنسانية باختيارها، فإذا أطلق لها حريتها، وهي بطبيعتها الأنثوية في الأمور العامة ضعيفة النظر، فلماذا مثلاً ينبغي أن يوافق ولي الفتاة والفتاة نفسها على الزواج؟ لأن ولي الفتاة أخبر بالرجال، وهي لها الحق أن تختار شريك حياتها من حيث الشكل، لكن الأب هو الذي يعرف الرجال، فلذلك المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية، ولكن الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾.

النقص يكون كمالاً في بعض الأحيان:

لدينا موضوع آخر، فالمرأة مجهزة نفسياً وعقلياً وجسماً لتكون أمًا، ولتكون زوجة، لذلك زاد الله عز وجل في انفعالها، وعاطفتها، ورحمتها، وحنانها على قوة إدراكها للقضايا العامة، وقوة حجتها في

الأمر النظرية، طبعاً لسنا بحاجة إلى محاضرة في قضايا فلسفية بل نحن بحاجة إلى أم ترعى أولادها وتعتني بهم وتكون مصدر سعادة لزوجها وأولادها.

ومن هنا فإن ما زاد في عاطفتها وانفعالها ورحمتها واهتمامها بأولادها وبيتها وزينتها، وما نقص من قوة إدراكها، وقلة اهتمامها بالقضايا العامة كمالاً فيها، وما زاد في قوة إدراك الرجل للقضايا العامة وشدة اهتمامه لها، وما نقص من قوة انفعاله، وقوة اهتمامه في الأمور التزينية والأسرية فهذا كمالاً فيه، وكنت أضرب مثلاً بمركبتين؛ مركبة ركاب ومركبة بضاعة، فأما مركبة البضاعة فإن مكان البضاعة يزيد على حساب مكان الركاب، وهذا كمال فيها، بينما مركبة الركاب زادت مساحة الركاب على حساب مكان البضاعة فهذا كمال فيها، في الأولى زيادة ونقص وهو كمال فيها، وفي الثانية زيادة ونقص وهو كمال فيها، الله عز وجل كامل وخلقه كامل.

بنية المرأة وبنية الرجل ليس فيهما نقص عيب بل نقص كمال:

بنية المرأة العقلية والجسمية والنفسية كمال فيها، وبنية الرجل العقلية والنفسية والجسدية كمال فيه، هذا ليس نقص نقص، بل نقص كمال، فأنت تريد أن تحمل بضاعة بهذه الشاحنة فهل معقول أن تجعل مكان البضاعة واحداً بالمئة من حجمها فقط؟ ليس معقولاً، وبقية السيارة مقاعد فارغة؟ فهذه ليست مركبة نقل بضاعة، لكن مركبة الركاب أوسع مساحة للركاب، وأقل مساحة للحاجات، فإذاً ممكن أن يكون النقص كمالاً أحياناً.

وبشكل مجمل نقول: ما زاد في قوة إدراك الرجل وشدة اهتمامه بالقضايا العامة والفلسفية، وما نقص من شدة انفعاله، واهتمامه بالقضايا التزينية، فهذا كمال فيه، وما زاد من قوة انفعالها وعطفها وحنانها وأنووتتها، وما نقص من قوة إدراكها للقضايا العامة، فهذا كمال فيها، فمثلاً إذا دخل إلى بيته، ووجده غير مرتب، والطعام غير ناضج، والأولاد بمظهر لا يليق، والبيت فوضى لا تحتل، وعند دخوله ألقت عليه امرأته محاضرة في نظام الدولة الجديد، فالذي يعنيه هو بهذا الموضوع؟ هي تطالع كثيراً وتقرأ وتتبحر، ولديها أفكار عميقة جداً، هو يريد بيتاً؛ أولاده مرتبين، امرأة تقوم بواجباتها، فلما تهتم المرأة بالتزيين هذا كمال فيها من أجل أن ترضي زوجها، وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿أَوْمَنُ يُنشَأُ فِي الْحَيَاةِ﴾.

البيوت مسؤوليات وللمرأة وظيفة فيها:

فالبيت مفطورة على حب التزین من أجل أن ترضي زوجها، هكذا صُممت.

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ فالمشادات الفكرية، والقضايا الفلسفية ليس للمرأة باع طويل فيها، فلقد سمعت مثلاً أن أحداث لبنان السابقة لها تفسير عربي ودولي وطائفي، بينما سمعت تفسيراً نسائياً، فقلن:

أصابته لبنان عين، فالمرأة أحياناً تدرك إدراكاً مختصراً، ولديها حكم عام مريح لها، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ.

أخرجه أحمد

المرأة دينها مختصر، أما دين الرجل فيوجد ألف مزلق بكسب المال، وألف مزلق بإنفاق المال، يعني الرجل أمام آلاف الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يطبقها حتى يفوز، (إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ)، يعني ريع دين المرأة طاعة زوجها، قال عليه الصلاة والسلام:

لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا.

ابن باز

حرص المؤمن على أسرته وعلى سعادة أبنائه:

فيجب على الآباء أن يربوا بناتهم على هذه التربية، والأمهات على هذه التربية كي يعود للبيت تألقه، وكي تصبح بيوت المسلمين جنات صغيرة، أما الآن المرأة صارت تبدي كل زينتها للطريق، وكل ما فيها من تقصير لزوجها، والبيوت الآن غير منتظمة، لذلك أي مجتمع تضعف فيه الأسرة ينتهي، لماذا انتهى الأجانب؟ لأن الأسرة تفككت.

فالمؤمن دائماً يحرص على أسرته، وعلى سعادة أبنائه، وعلى الوئام والوفاق، والحقيقة أن بطولة الإنسان أن يكون سعيداً في بيته، لأنه إذا سعد في بيته انعكس هذا على عمله، هذا معنى القرآن الكريم: ﴿أَوْ مَنْ يُنشأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ إن الله عز وجل لم يمدح، ولم يذم ولكنه وصف، هذه الفتاة مصممة على أن تكون أما؛ تحتاج إلى عاطفة، تحتاج إلى رحمة، تحتاج إلى إدراك سريع، تحتاج إلى حب التزين، الله عز وجل خلق بعض الحلي في البحار لتكون زينة للنساء، وهناك آيات تؤكد هذا المعنى، فالله الذي صمم المرأة صمم لها هذه الحلي كالذهب والفضة واللؤلؤ، هذه من أجل من؟ ﴿أَوْ مَنْ يُنشأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)

سورة الزخرف

جعلوا الملائكة إناناً وهذا افتراء آخر لأنهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله:

هذا افتراء آخر، فأول افتراء: أن جعلوا لله من عباده جزءاً، الافتراء الثاني: جعلوا هذا الجزء بنتاً، والافتراء الثالث: جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ليس بين الملائكة ذكوراً وإناثاً، والملائكة ليسوا كالبشر يتوالدون، فالتوالد يقتضي أن يكون هناك ذكر وأنثى، أما في الملائكة لا يوجد توالد، فهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

الافتراء الثالث ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ هل كنتم حينما خلقهم الله؟ ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أنت تقول أن الملائكة أنثى، فهل رأيت أنت أنهم إناث، وحينما خلقت أكننت مع الله عز وجل؟

﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ لقد سجل الله عليهم مقاتلهم هذه، وسيُسألون عنها.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا هُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

سورة الزخرف

ولقد تكررت مقولتهم هذه في القرآن الكريم مرات عديدة.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاقُوا بِأَسْنَانِنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)

سورة الأنعام

عقيدة الجبر عقيدة مضلة تلغي التكليف:

في الآية إشارة لعقيدة الجبر بأن تعتقد أن الله أجبرك على المعصية أو على الكفر، وهذه عقيدة ضالة مُضِلَّة، هذه العقيدة تلغي التكليف، تلغي الأمانة:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)

سورة الأحزاب

تلغي الثواب، تلغي العقاب، تلغي المسؤولية، تلغي الجنة، تلغي النار، تلغي جدوى نزول الكتب السماوية، تلغي جدوى إرسال الأنبياء، والمرسلين، تجعل الدين تمثيلية، عقيدة الجبر، فلذلك قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ومقولة العوام من الناس تلتقي مع تلك المقولة بأسلوب آخر فيقولون: طاسات معدودة بأماكن معدودة، يعني الجبر، يقولون لسننا لنا حيلة وهذا ترتيب سيدك، هذا جبر أنت ليس لك علاقة أبداً، والله ألهمك المعصية، هذه عقيدة الجبر، وهي عقيدة زائغة.

أحد الخلفاء لما جيء له بإنسان شارب الخمر، قال له: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، قال: أقيموا عليه الحدّ مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افتري على الله، وقال له: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

الإنسان مخير فيما يفعل أو يقول:

لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ويجب أن نؤمن بأننا مخيرون، وأن الإنسان:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)

سورة فصلت

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

سورة الإنسان

وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ (17)

سورة فصلت

وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

سورة البقرة

الإنسان مخير، هنا قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذا

جدل وهذا افتراء على الله، إذ قالوا: إنهم مجبرون على أن يعبدوا هؤلاء.

أشد أنواع الكذب أن يخرص الإنسان:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون،

وأن يخرص الإنسان فهذا في الحقيقة أشد أنواع الكذب، ثم إن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أدلتهم الواهية: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فهل لديكم دليل عقلي؟ ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ المقصود بالعلم هنا المشاهدة.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ هم لم يكونوا مع الله عز وجل حينما خلق الملائكة، وهنا الله عز وجل

نفى عنهم الدليل العقلي، أما النقل:

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)

سورة الزخرف

فهل لديهم نص؟ وهذه إشارة دقيقة جداً في هاتين الآيتين إلى الدليل العقلي والدليل النقلى، وقالوا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَوَّكْتَبَ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ* وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الآن هذه الدعوة، وهذا الافتراء، وذلك الكفر، أورد عندهم بكتاب منقول عن الله عز وجل؟

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)

سورة الزخرف

أي على طريقة أو على دين، والأمة في الآية هي الطريقة التي نؤمن ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ نحن هكذا نشأنا وهكذا تربينا، أوليائنا هكذا علمونا، آبائنا هكذا قالوا لنا، أجدادنا هكذا كانوا، تركوا النقل فليس لديهم لا نقل ولا عقل، بل هو تقليد.

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (23)

سورة الزخرف

يعني عقل تقليدي لا يغير ولا يبدل، نحن هكذا نشأنا، وهكذا تربينا، عادات، وتقاليد، وتراث، يقول لك تراث وصار التراث عندهم إلهاً.

ثماني آيات في القرآن اقترن فيهن الترف مع الكفر:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وكلمة "المترفون" في القرآن في ثماني آيات حصراً، وفي هذه الآيات الثمانية اقترن الترف مع الكفر: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ الترف مثلاً أن تقيم حفلة عرس أو حفلة عقد قران بعشرين مليون ليرة، بينما يمكن لشاب أن يتزوج بمئتي ألف، ويسكن مع زوجته ببيت صغير خارج دمشق، يتزوج ويُحصن، معنى هذا أن المثال الأول دليل ترف.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (23) قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)

سورة الزخرف

هؤلاء لا يغيرون.

قَالَ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (25)

سورة الزخرف

علاقة الآيات التالية بالآيات السابقة:

فالسؤال الآن ما علاقة القصة التالية:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي (27)

سورة الزخرف

هذا سؤال للدرس القادم، ما علاقة قصة سيدنا إبراهيم بسياق الآيات؟ القرآن مترابط، فالحديث الآن عن هؤلاء الذين وجدوا آباءهم على أمة وإنهم على آثارتهم مقتدون، قال تعالى:

قَالَ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (25) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي (27)

سورة الزخرف

الله سبحانه نفى عنهم الدليل العقلي والدليل النقلى وأبقى لهم التقليد الأعمى:

دققوا النظر فستجدوا أن الله سبحانه وتعالى نفى عنهم الدليل العقلي، كما نفى عنهم الدليل النقلى، وأبقى لهم تقليدهم الأعمى، فجاء سيدنا إبراهيم وقال لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فالله عز وجل ينتظر منا ألا نقلد أحداً، ويريد منا أن نؤمن به بالعقل والنقل، وفي درس قادم آخر نتابع هذا الموضوع إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.